عناية السُّنة النبوية بالقدوة الصالحة في زراعة القِيمَ الأخلاقية لدى الناشئة [1]

فكرة البحث :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد فإنَّ القدوة من أخطر المؤثرات في حياة الطفل، فالطفل يلتقط كل الأشياء الملموسة من حوله، وقد لا يشعر الأهل بذلك ، ومن هنا ينبغي على العائلة وخاصّة الأبوين العناية بهذه المسألة، فكما يتعلم الطفل النطق يتعلم الصدق والكذب والعنف والتمييز والرحمة ...من خلال القدوة.

وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام أنموذجا رائعا لصحابته الكرام في التربية بالقدوة، وكان أيضا مثالا لتعليم الأهل الاعتناءَ بالقدوة الصالحة كأكبر موجِّه لحياة الطفل ومستقبله من خلال غرس القيم الأخلاقية كالعدل والصدق والمحافظة على نقاء الفطرة.

انطلاقا من هذا تأتي الدراسة.

أهمية البحث:

التربية بالقدوة لدى علماء التربية تحتلُّ الصدارة بين كلِّ الوسائل التربية وتُعدُّ الأكثر رسوخا في نفسية الطفل، كما أنَّ هذا المنهج يُعدُّ الأكثر مقاومة للتيارات التي قد تعمل على توجيه سلوك الطفل سلوكا خاطئا أخلاقا كان أو اجتماعيا.

يروم البحث الكشف عن اهتمام السنة النبوية بزراعة القيم الأخلاقية نَظرا إلى أهمية هذه القيم في تربية النشء عليها.

خطة البحث

المبحث الأول: ضبط المفاهيم (السنة النبوية، القدوة الصالحة، القيم الأخلاقية، الناشئة)

المبحث الثاني :القدوة الصالحة في القرآن والسنة النبوية

المبحث الثالث : القيم الموجّهة للنشء الصادرة عن النبي عليه الصلاة والسلام وعن أصحابه

الكلمات المفتاحية:

السنة النبوية، القدوة الصالحة، القيم الأخلاقية، الناشئة، العدل، القوة

1 حسن الخطاف/ Hasan Alkhattaf أستاذ المنطق والإلهيات في جامعة قطر كلية الشريعة والدراسات الإسلامية Khattaf72@gmail.com

المبحث الأول ضبط المفاهيم

1. العناية:

عندما نرجع إلى ابن فارس (ت: 395 هـ) نجد الفعل (عنى) وما يُؤخذ منه يدل على ثلاثة معانٍ :

الأول: القصد للشيء بانكماش فيه وحرصٍ عليه، ومن هذا المعنى قولهم عنيت بالأمر فأنا معني به وعنَاني أمره: اهتمَمْتُ به، و من ذلك معاناة الشيء: مخالطته والاهتمام بأمره، وعلى هذا يكون المعنى المقصود من العناية هو اهتمام السنة النبوية وانشغالها بقضية القدوة الصالحة والحرص عليها، والانكماش والاحتباس موجود في هذا المعنى فشدّة الاهتمام بالشيء تجعله مُنكمشا عليه لايفرِّط فيه.

الثاني: عنا يعنو، إذا خضع وذلَّ، وهذا المعنى ليس مرادا هنا.

الثالث: هو البروز والظهور، ومنه قولهم عنوان الكتاب لبروزه، ومن هذا الباب معنى الشيء، ومعنى الكلام هو القصد الذي يبرز ويظهر في الشيء إذا بحث عنه، ومنه يُقال معنى الكلام ومعنى الشِّعْر، أي الذي يبرز من مكنون ما تضمنه اللفظ[2] وهذا المعنى ليس بعيدا عن مقصودنا .

2. السنة النبوية :

تُطلق السُّنَّة في اللغة بمعنى الطريقة التي يسلكها الشخص يقول ابن سيدة(ت: 458هـ):" السُّنة: السيرة حسنة كانت أو قبيحة "[3]، وهي عند الفقهاء مرتبطة بأمرين « ما يثاب على فعله ولا يعاقب على تركه» وهو تعريف للحنبلية، وللمغاربة من المالكية، أو «الفعل المطلوب طلبا غير جازم» وهو للشافعية وللبغداديين من المالكية، كما أن السنة – عند الأكثر– مرادفة للمندوب والمستحب والتطوع[4] وأما السُّنَّة عند الأصوليين فقد عرَّفها سيف الدين الآمدي (ت: 631 هـ) بقوله هي:" أقوال النبي عليه السلام، وأفعاله وتقاريره"[5]، وهذا هو الذي يعنينا من تعريفنا للسنة بمعناها التشريعي الذي ينُتج أحكاما، والسنة بهذا المعنى ترجع إلى نوعين هما أقوال وأفعال النبي عليه الصلاة والسلام؛ لأنَّ التقرير يعود إلى قولٍ أو فعل، يقول أبو بكر

---

[2] انظر: فيما سبق أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني ، مقاييس اللغة ، عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399 هـ – 1979 م. ج4، ص 148، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، تهذيب اللغة، المحقق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، 2001م، ج3، ص 135، محمد حسن حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل، الناشر: مكتبة الآداب – القاهرة، الطبعة: الأولى، 2010 م. ، ج3، ص 1532 .

[3] علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، المحكم والمحيط الأعظم، تحيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 2000 م، ج 8 ص 417، وانظر: محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله و هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، ج3، ص 2124 .

[4] انظر: عبد الغني عبد الخالق، حجية السنة، دار السعداوي للطباعة والنشر والتوزيع.، ص 45– 68.

[5] سيف الدين الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت/ دمشق، ج1، ص 169.

الجصاص(ت:370هـ) :"وسنن رسول الله – عليه السلام – على وجهين: قول وفعل"[6].

3. **القُدوة الصالحة :**

يقول شيخ اللغوية ابن فارس(ت:395هـ) (قدو) القاف والدال والحرف المعتل أصل صحيح يدل على اقتباس بالشيء واهتداء، ومقادرة في الشيء حتى يأتي به مساويا لغيره، من ذلك قولهم: هذا قدى رمح، أي قيسه، وفلان قدوة: يُقتدى به، ويقولون: إن القدو: الأصل الذي يتشعب منه الفروع"[7].

نلحظ من كلام ابن فارس أنّ الأصل اللغوي للاقتداء هو الاتباع، ومنه المقتدي في الصلاة الذي يتّبع إمامه ولايخرج عنه، وكُتُب اللغة عندما تذكر القدوة لاتخرج عن هذا المعنى، يقول ابن سِيْده(ت:458هـ):"القُدْوَة، والقِدوة: مَا تسننت بِهِ"[8] وما تتسنَّن به هو الذي تتبعه ولاتخرج عنه، والقُدة مأخذوة من القَدُو ومن القدَّ، والقدو " أصل البناء الذي يتشعب منه تصريف الاقتداء" ... والقدوة والقدوة: الأسوة. يقال: فلان قدوة يقتدى به 9.

ويقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور عن القدورة "بضم القاف وكسرها- وقياسه على الإسوة يقتضي أن الكسر فيه أشهر، وقال في «المصباح» : الضم أكثر. ...وروى فيه فتح القاف أيضا، وهو نادر"[10]

ووفقا لهذا المعنى الذي ذكره ابن فارس وسار عليه اللغويون فيما بعد نجد الدكتور محمد حسن حسن جبل يؤكد في كتابه القيم "المعجم الاشتقاقي المؤصل "[11] المعنى المحوري للقُدوة هو اتباع الشيء انجذابًا او امتدادًا إليه لاستطابته أو أصالته وذلك كالرائحة الطيبة من الطعام التي تجذب من يشمه ، والمسك تجذب من يشمها فيتبعها، وكالفُروع من الأصل، وهذا الاتباع قد يكون مادّيا كمن يتبع الطعام وينجذب نحوه وقد يكون معنويا كمن يقتدي بغيره بالأخلاق. 11، ومن الاتباع المادي ما يقتدي به المصلي وراء إمامه، فالمقتدي ما سُمي مقتديا إلا لاتباعه إمامه

6 أحمدبن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي، الفصول في الأصول، وزارة الأوقاف الكويتية، الطبعة: الثانية، 1414هـ - 1994م،ج3، ص235.

7 ابن فارس ، مقاييس اللغة، ج5، ص 66.

8 ابن سِيْده المرسي، المحكم والمحيط الأعظم، ج6، ص 534.

9 ابن منظور، لسان العرب ،ج15، ص 171.

10 محمد الطاهر بن محمد بن عاشور، الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: 1984 هـ التحرير والتنوير، ج7، ص 356.

11 محمد حسن حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل، .ج4، ص 1742.

.12

أما الصالحة، فهي مأخوذة من الصلاح وهو ضد الفساد يقول ابن فارس:" الصاد واللام والحاء أصل واحد يدل على خلاف الفساد" [13]، وضابط الصلاح والفساد هو ما جاءت به الشريعة، فكلُّ ما دعت إليه الشريعة فهو من الصلاح، وكلُّ ما نهت عنه فهو من الفساد.

والصلاح في النفس والإصلاح للآخرين هي وظيفة الأنبياء الذين أرسلهم الله تعالى ، يقول الله تعالى حاكيا عن شعيب عليه السلام {إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (88) } [هود: 88].

4. القيم والأخلاق:

أ. القيم : جمع قيمة، والقيمة بالمعنى الاقتصادي المنفعة، والقيمة بالمعنى الفلسفي الأحكام المعيارية الضابطة لسلوك الإنسان والموجهة له والتي نميز من خلالها الخير والشر، والقيم كثيرة منها :قيم اقتصادية (النجاح الاجتماعي ، الربح ، الانتفاع ، المال..) وقيم جمالية (الفن ، الجمال ، البعد الروحي) وقيم فكرية (العقلانية ، الحقيقة ، الوضوح ، الصرامة ، التماسك المنطقي ، الخصوبة الفكرية ، الموضوعية..)

ب. الأخلاق: الأخلاق هي أفعال اختيارية تصدر عن المُكلَّف ويُناط بها المدح أو الذم، كالصدق والأمانة والتعاون ... فهذه أخلاق حسنة وما يقابلها أخلاق سيئة ، والمعيار في ذلك هو المدح والذّم وهما ملازمان للفعل الأخلاقي، فقول الصدق وأداء الحقوق وترك القبائح فعل أخلاقي يُمدَح فاعله، والقتل ظلمًا وإهدار الحقوق ...يُذم مرتكبه، وبناء على هذا لا تدخل المباحات كالنوم والشرب في مسمَّى الفعل الأخلاقي إلا إذا تجاوزت المباحات حدودها وأثَّرت في غيرها، عندئذٍ تثبت المسؤولية ويُوصف الفعل بأنه غير أخلاقي، ومنه السهر والإفراط في النوم المؤديان إلى التفريط بالحقوق من صلاة أو وظيفةٍ ونحوهما.

---

12 قاسم بن عبد الله بن أمير علي القونوي، أنيس الفقهاء في تعريفات الألفاظ المتداولة بين الفقهاء، الناشر : دار الوفاء – جدة، الطبعة الأولى، 1406 ، تحقيق: د. أحمد بن عبد الرزاق الكبيسي، ص 90.

[13] ابن فارس، مقاييس اللغة ، ج3، ص 303.

وعمليًّا ثمَّة ارتباط بين المسؤولية والفعل الأخلاقي، والآيات في هذا من الكثرة بمكان، من ذلك قول الله تعالى: {وَاعْبُدُوا اللهَّ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَّ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا} [النساء: 36]

5. الناشئة:

الناشئة جمع ناشئ والمقصود به المعنى اللغوي، ويُطلق على الأولاد ذكورا أو إناثا، يقول ابن فارس: "(نشأ) النون والشين والهمزة أصل صحيح يدل على ارتفاع في شيء وسمو، ونشأ السحاب: ارتفع، وأنشأه الله: رفعه... ومن الباب: النشء والنشأ: أحداث الناس، ونشأ فلان في بني فلان، والناشئ: الشاب الذي نشأ وارتفع وعلا"[14].

فالأولاد الصغار لا يبقون صغارا وإنما ينشؤون ويتربون، ومن الواضح أننا نقصد بهذا المعنى الأطفال حتى سنَّ الشباب.

المبحث الثاني :القدوة الصالحة في القرآن والسنة النبوية

1. أنواع القُدوة ومنزلتها:

ظهر من خلال ما تقدّم أنّ المقصود بالاقتداء هو القدوة بمعنييها المادي والمعنوي، والقدوة في الجانب المادي لاتعتبره الشريعة مالم يكن هناك اقتداء واتباع معنوي صالح، وهذا ما جاءت به الآيات الكثيرة وأرشدت إليه ليكون المُقتدى به أصلا فكريا يرجع إليه المقتدي، وقد جعل القرآن الكريم الأنبياء وعلى رأسهم محمد صلى الله عليه وسلم مثالا يُقتدى بهم، قال سبحانه وتعالى في حقِّ نبينا محمد عليه الصلاة والسلام {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهَّ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَّ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَّ كَثِيرًا (21)} [الأحزاب: 21] وفي حقِّ الأنبياء قال ربنا {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَّ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ} [الممتحنة: 6] والضمير يرجع هنا إلى "إبراهيم ومن معه من الأنبياء والأولياء"[15]عليهم الصلاة والسلام.

والإسوة هي الاقتداء والتَّتبع، يقول سبحانه وتعالى {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُّ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام:

---

[14] ابن فارس، مقاييس اللغة، ج5، ص 429.

15 القرطبي، محمد بن أحمد، تفسير القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، 1384هـ – 1964 م، ج 18، ص 57.

90]، وفي هذا السياق يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور:" والقدوة هو الذي يعمل غيره مثل عمله، ولا يعرف له في اللغة فعل مجرد فلم يسمع إلا اقتدى، وكأنهم اعتبروا القدوة اسما جامدا واشتقوا منه الافتعال للدلالة على التكلف كما اشتقوا من اسم الخريف اخترف، ومن الأسوة ائتسى، وكما اشتقوا من اسم النمر تنمَّر، ومن الحجر تحجَّر...وفي قوله: فبهداهم اقتده تعريض للمشركين بأن محمدا صلى الله عليه وسلم ما جاء إلا على سنة الرسل كلهم وأنه ما كان بدعا من الرسل "[16].

وحيثما دعا القرآن الكريم إلى الاتِّباع أو مدح أشخاصا او أثنى على منهجهم فهو سبحانه وتعالى يدعونا إلى أن نجعل منهم قدوة لنا كقوله سبحانه وتعالى {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (18)} [الزمر: 18]، وعلى رأس هؤلاء الأنبياءُ والصحابة والصالحون والشهداء يقول سبحانه { لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (18)} [الفتح: 18]، فالمقصود من ذكر ذلك الاقتداء بهم وبأفعالهم والتشجيع عليها .

وحيثما ذكر الله الكافرين والمعرضين والمفسدين ومنهجهم واللعن عليهم ...فالمقصود منه التنفير أن نجعل من تصرفاتهم قدوة، كقوله سبحانه وتعالى عن اليهود {وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (64) } [المائدة: 64] .

ويدخل في هذا كلّ ما دعانا إليه النبي عليه الصلاة والسلام وحسَّنه في نفوسنا، فالمطلوب أن نجعل من هذا التصرُّف ومن القائمين عليه موطن اقتداء لنا ولأولادنا ، وكلُّ ما نهانا عنه، فهو يحذرنا من اتِّباعه والاقتداء به، وذلك كقوله عليه الصلاة والسلام داعيا إلى أن نجعل من منهج من أثنى عليهم قدوة لنا " كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ: إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ "[17] فالنبي عليه الصلاة والسلام في ذكره لعائشة ومريم وآسية دعانا إلى أن نتخلق بأخلاق هذه النساء

[16] محمد الطاهر بن محمد بن عاشور، الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: 1984 هـ التحرير والتنوير، ج 7، ص 356.

17 البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، بَابُ وَفَاةِ مُوسَى وَذِكْرِهِ بَعْدُ، رقم: 3411، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، 1422 هـ.

الطاهرات ، وكقوله عليه الصلاة والسلام عن داود "وَلاَ يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدِهِ" [18] وقد يكون تحذّيرا من الاقتداء بالآخرين، كما حّذر عليه الصلاة والسلام من حيل اليهود في قوله «لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ، حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَجَمَّلُوهَا، فَبَاعُوهَا» [19].

2 . شروط المُقتدَى به واحتياج المُقتدي وهم النشء للقدوة:

أ. شروط المُقتدَى به هو التّمسّك بالهُوية وعدم الانجراف وراء الآخرين:

من شروط المُقتدى به في زراعة القيم والأخلاق التمسُّك بالهُوية وعدم الانجراف وراء الآخرين؛ فقد اختار الله سبحانه هذه الأمة على غيرها حتى جعلها وجعل نبيها شهداء على الناس، ومن يشهد على الناس ينبغي أن يكون أمينا صادقا عالما، وما ذلك إلا لمنزلة هذه الشريعة ومنزلة أهلها كما قال سبحانه وتعالى { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ } [آل عمران: 110]، وكما قال سبحانه { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة: 143] والوسط والعدل لا يُعرف إلا بالمقارنة مع غيره، ومقارنة أصحاب هذه الشريعة مع غيرهم تُظهر وسطيتهم فلا هُم أهل غُلوٍّ في الدين كـ"غلوَّ النصارى الذين غلوا بالترهُّب، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه – ولا هُم أهلُ تقصير فيه، تقصيرَ اليهود الذين بدَّلوا كتابَ الله، وقتلوا أنبياءَهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به؛ ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحبَّ الأمور إلى الله أوْسطُها" [20].

وإذا كانت الشريعة وكان أصحابه بهذه المنزلة فمن الضروري أن يشعر المرء بانتمائه لهذه العقيدة ويفاخر بها ولايشعر بضعف ولا بخجل في الانتماء إليها، فالارتماء نحو اليمين والشمال في الأفكار والتوجهات ضياع للنفس وللأمة وخروج عمَّا تريده الشريعة من الاعتزاز بالهوية والتفاخر بها.

ومن أجل هذا نهت الشريعة عن التَّشبه بغير المسلمين، وما ذاك إلا لأنها تريد من المرء أن يكون مُعتزا بدينه

---

18 البخاري، صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء، بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: {وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا} "رقم: 3417

19 البخاري، صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، بَابُ مَا ذُكِرَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، رقم: 3460 .

20 الطبري، محمد بن جرير ،جامع البيان في تأويل القرآن، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1420 هـ – 2000 م،ج3، ص 142.

قال عليه الصلاة والسلام «إِنَّ اليَهُودَ، وَالنَّصَارَى لاَ يَصْبُغُونَ، فَخَالِفُوهُمْ» [21]، وما هذا إلا نموذج من النماذج الكثيرة التي تدعو فيه الشريعة إلى عدم اتباع الآخرين.

ب. احتياج المُقتدي للقُدوة لكونه على الفطرة:

المُقتدي هم النَّشء، وهؤلاء مخلوقون على الفطرة ولذا هم محتاجون لقُدوة صالحة ، والنَّشء كالأرض الخالية هي قابلة للزراعة وماتزرع فيها ينبت، فالنشء وخاصة الصغار منهم يكونون في سنّ الطفولة لا يعرفون إلا المحسوسات ومن المحسوسات يحكمون على الأشياء، فما كان من القيم والمفاهيم المجرَّدة كالصدق والإخلاص والإحسان والإتقان والأمانة والعدل فالنشْء لايعرفون مفاهيمها ولامدلولاتها، إنما يعرفون صدُقاتها على حدِّقول المناطقة، وكذا لا يعرف الأطفال المفاهيم المجردة المقابلة لهذه القيم كالكذب والخيانة والظلم إلا من خلال تجسُّداتها، ومن لا علم عنده لا حكم لديه على الأشياء.

هذه المفاهيم الخيّرة أو الشريرة تتجسد أكثر شيء في الوالدين ومنهما تنتقل إلى النشء من خلال التربية وهذا معنى حديث النبي عليه الصلاة والسلام «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ»، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: {فِطْرَةَاللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} [الروم: 30] الآيَةَ" [22] "وأما قوله "بهيمة جمَعَاء" فالجَمعاء السليمة من العيوب سميت بذلك لاجتماع سلامة أعضائها لاَ جَدَعَ بها ولا كيّ وكأنه – صلى الله عليه وسلم – شبه السلامة التي يولد عليها المولود من الاعتقادات الفاسدة بالبهيمة الجمعاء التي هي سليمة من العيوب ثم يَطرأ عليها العَيب بِفعل يُفعل فيها كما يطرأ إفساد الاعتقادات على المولود بتربية يرَبَّى عَلَيها" [23].

وقد تضاربت أقول العلماء وتشتت في معنى الفطرة، والمعنى الصحيح هو موجود عند الشيخ محمد الطاهر

---

21 البخاري، صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل رقم: 3462.

[22] البخاري، صحيح البخاري ، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام رقم: 1395 .

[23] محمد بن علي بن عمر التَّمِيمي المازري ، المُعْلم بفوائد مسلم ، المحقق: فضيلة الشيخ محمد الشاذلي النيفر، الدار التونسية للنشر، المؤسّسة الوطنية للكتاب بالجزائر، المؤسّسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدّراسات بيت الحكمة، الطبعة: الثانية، 1988 م، والجزء الثالث صدر بتاريخ 1991م، ج3، ص 320.

ابن عاشور في قوله:" أرَ من أتقن الإفصاح عن معنى كون الإسلام هو الفطرة فأبينه: بأن الفطرة هي النظام الذي أوجده الله في كل مخلوق، والفطرة التي تخص نوع الإنسان هي ما خلقه الله عليه جسدا وعقلا، فمشي الإنسان برجليه فطرة جسدية، ومحاولته أن يتناول الأشياء برجليه خلاف الفطرة الجسدية، واستنتاج المسببات من أسبابها والنتائج من مقدماتها فطرة عقلية، ومحاولة استنتاج أمر من غير سببه خلاف الفطرة العقلية وهو المسمى في علم الاستدلال بفساد الوضع، وجزمنا بأن ما نبصره من الأشياء هو حقائق ثابتة في الوجود ونفس الأمر فطرة عقلية، وإنكار السوفسطائية ثبوت المحسوسات في نفس الأمر خلاف الفطرة العقلية" [24]

ويقول أيضا "فوصف الإسلام بأنه فطرة الله معناه أن أصل الاعتقاد فيه جار على مقتضى الفطرة العقلية، وأما تشريعاته وتفاريعه فهي: إما أمور فطرية أيضا، أي جارية على وفق ما يدركه العقل ويشهد به، وإما أن تكون لصلاحه مما لا ينافي فطرته، وقوانين المعاملات فيه هي راجعة إلى ما تشهد به الفطرة لأن طلب المصالح من الفطرة" [25].

خلاصة الكلام أنَّ الفطرة هي النظام التكويني وليس التكليفي الذي وُجد عليه المخلوق، وهذا النظام مهيأ في المستقبل لقبول العقيدة فكرا وسلوكا، وهذا التهيؤ يبقى مستمرا مالم يتدخل المجتمع في انحرافه، والتهيؤ العقلي أشبه ما يكون بتهيؤ الحواس، فالسمع للمولود والبصر... كلها عبارة عن بذور مهيأة في المستقبل للنمو والتطور والعمل.

وهذه الفطرة مستمرة على هذا الشاكلة وهو معنى قوله تعالى" لا تبديل لخلق الله " وقد كان للأسرة دور كبير في تنمية هذه الفطرة وتوجيه النشء توجيها صحيحا من خلال اقتدائهم بآبائهم، فالآباء هم الأقرب للنشء، فعن" عبدُ الرحمن بنُ أبي بكرَة، أنه قال لأبيه: يا أبَةِ إني أَسمَعُكَ تَدْعُو كلَّ غَدَاةٍ: اللَّهُمَّ عافِنِي في بَدَني، اللهم عافِنِي في سَمْعِي، اللَّهُمَّ عافني في بَصَري، لا إلهَ إلا أنت، تُعيدها ثلاثاً حينَ تُصْبِحُ، وثلاثاً حينَ تُمسي، فقال: إني سمعتُ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم -يدعو بهنَّ فانا أُحِبُّ أن أستَنَّ بسُنَّتِه" [26].

المبحث الثالث : القيم الموجّهة للنشء الصادرة عن النبي عليه الصلاة والسلام وعن أصحابه

[24] محمد الطاهر ابن عاشور التونسي، التحرير والتنوير ، الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: 1984 هـ التحرير والتنوير ، ج21، ص 90.

[25] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج21، ص 91.

26 أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني، سنن أبي داود، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، أبواب النوم، باب مايقول إذا أصبح، رقم: 5090

أولا. قيم إيمانية:

المقصود بهذا النوع من القيم أنّها تربط الطفل بربه ويدخل في ذلك الإيمان والعبادات وتعليم القرآن الكريم والدُّعاء بالبركة للصبيان...

ومن دلائل هذه القيم في السنة النبوية:

1. ربط الطفل بربه:

الطفل كالقطعة البيضاء النقية تحتاج إلى ربطٍ مستمر بالله تعالى وبذلك يتعود وينشأ، ومما جاء في هذا قوله صلى الله عليه وسلم لعُمَرَ بْنَ أَبِي سَلَمَةَ: «يَا غُلَامُ، سَمِّ اللَّهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ» [27]

فهذا الحديث الذي فيه توجيه من النبي عليه الصلاة والسلام وتعليم لعمر بن أبي سلمة فيه فوائد جمة ولعل من أبرزها أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام أراد أن يربط عمر بربه وذلك من خلال التذكير بالبسمة، فما نأكله هو نعمة من الله تعالى، فنحن نأكله باسم الله وليس لنا حولٌ ولاقوة، وبذلك جعل النبي عليه الصلاة والسلام من نفسه قُدوة لعمر في هذا التوجيه.

2. الصلاة مع الأطفال:

الصلاة هي صلة للعبد بربه وبنفسه وبمجتمعه، من هنا تُعدُّ أساسا لزراعة القيم سواء أكانت قيما خاصا كقيمة النظافة الموجودة في الصلاة والمراقبة لله، أو قيما اجتماعية كقيم التعارف والتعاون على الخير ... المرتبطة بصلاة الجمعة والجماعة، ولذا حرص النبي عليه الصلاة والسلام على الصلاة مع الأطفال وإحضارهم للمصلى تنبيها إلى أهمية هذه القيمة وغيرها ، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال :«خرجت مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم فطر أو أضحى فصلى، ثم خطب، ثم أتى النساء، فوعظهن، وذكرهن، وأمرهن بالصدقة» [28].

---

[27] البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين، رقم: 5376

[28] البخاري، أبواب العيدين، كتاب الأطعمة، باب خروج الصبيان إلى المصلى، رقم: 975

3. التأسي بالنبي عليه الصلاة والسلام والاقتداء به:

ومما لاحظناه في حديث ابن عباس أنه رضي الله عنه تأسَّى بالنبي عليه الصلاة والسلام وهذا في قوله "فَتَوَضَّأْتُ نَحْوًا مِمَّا تَوَضَّأَ" وليس هذا مقصورا على النبي وإنما يُقتدى بأصحاب الفضل .

ثانيا. قيم التعليم، والتصحيح وعدم السكوت على الخطأ أو الخجل منه:

يحتاج الطفل أنْ يكون له نموذج يقتدى به، يقبل منه ويأخذ عنه، وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يهتم بتوجيه أُمته ومن ذلك النشء" فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: بِتُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ لَيْلَةً فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا كَانَ فِي بَعْضِ اللَّيْلِ قَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «فَتَوَضَّأَ ... فَتَوَضَّأْتُ نَحْوًا مِمَّا تَوَضَّأَ، ثُمَّ جِئْتُ فَقُمْتُ، عَنْ يَسَارِهِ ... فَحَوَّلَنِي فَجَعَلَنِي عَنْ يَمِينِهِ"[29].

هذا التصرف من النبي عليه الصلاة والسلام يزرع الشجاعة في نفس عبد الله بن عباس في المستقبل للقيام بما قام به النبي عليه الصلاة والسلام، ومن المعلوم أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام لا يسكت على خطأ يحصل أمامه، فتعليم غير المتعلم وتصحيح الخطأ قيمة كبرى في حياة المرء.

استفاد ابن عباس من تصرف النبي عليه الصلاة والسلام قيمتين على الأقل: القيمة الأولى قيمة تعليم الآخرين، والقيمة الأخرى قيمة التصحيح المباشر والذي يجمع بين هاتين القيمتين أنهما لا يحتاجان إلى استئذان ،ومن جهة أخرى فإنَّ التعليم يؤدي للتغيير كما أنّ وقوع هاتين القيمتين في غير وقتهما يفقدهما المنزلة لهما، فالوقوع المباشر وتحويل النبي عليه الصلاة والسلام لابن عباس وهو في الصلاة هو الأرسخ في الذهن ولن ينسى ابن عباس رضي الله عنه هاتين القيمتين.

وهاتان القيمتان كانتا حاضرتين في حياة النبي عليه الصلاة والسلام مع أصحابه، وهي الوظيفة الأصلية للوحي الذي جاء بالتعليم وبالتغيير، والقرآن من بدايته إلى نهايته لا يخلو من تعليم، بل الآيات الأولى كانت حاضّة على العلم والتعليم {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)} [العلق: 1 – 5] والتعليم دائما يقود إلى التغيير إما مِن حسنٍ إلى أحسن أو من الخطأ إلى الصواب وقد كان هذا منهجا في حياة النبي عليه الصلاة والسلام وكان مرتبطا بالحكمة.

ثالثا. قِيَم التواصل الاجتماعي مع الصبيان وبناء شخصياتهم وعدم تعنيفهم:

[29] البخاري، صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب التخفيف في الوضوء رقم: 138 .

يحتاج الأطفال حتى سنَّ الشباب إلى من يتواصل معهم اجتماعيا، وبذلك توجد بيئة يتعلم فيها النشء خارج دائرة الأسرة الضيقة من الأبوين والإخوة، وهذا قيمة كبرى حتى لا يبقى النشْء بعيدا عن التواصل الاجتماعي الذي يصيب كثيرا من المجتمعات اليوم حيث يبقى الطفل منعزلا بعيدا عن الواقع، وقد لاحظنا في حديث ابن عباس رضي الله السابق عندما بات عند خالته ميمونة ، وهي ميمونة بنت الحارث ابن حزن الهلالية، وأختها لبابة بنت الحارث وتكنى أم الفضل، وهي أم عبد الله بن عباس، فهي أخت أمه من النَّسب [30] ومبيته في بيت النبي عليه الصلاة والسلام هو توجيه لنا في توسيع الدائرة المحيطة بالنشء لينتفع منها، ولم يجد حرجا صلى الله عليه وسلم أن ينام معه ابن عباس على ذات الوسادة ففي رواية أخرى في " أنه – صلى الله عليه وسلم – اضطجع هو وأهله في طول الوسادة، واضطجع ابن عباس في عرضها" [31].

ولاشكَّ أنّ هذا الصنيع من النبي عليه الصلاة والسلام يجعل من ابن عباس قريبا من قلب النبي عليه الصلاة والسلام، وكلما أحسَّ الأطفال والصبيان والشباب أنهم يشعرون بقربهم من الآخرين يكون نفعهم بالآخرين أكثر.

وقد كان النبي عليه يتواصل مع الصبيان ولم يكن منعزلا عنهم لينتفعوا ببركته وليكون لأهله قدوة، تقول السِيْدة عائشة رضي الله عنها: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُؤْتَى بِالصِّبْيَانِ فَيَدْعُو لَهُمْ، فَأُتِيَ بِصَبِيٍّ فَبَالَ عَلَى ثَوْبِهِ، فَدَعَا بِمَاءٍ فَأَتْبَعَهُ إِيَّاهُ، وَلَمْ يَغْسِلْهُ» [32].

ولنلحظ كلمة الجمع (الصبيان) فالحالة لم تكون مقصورة على طفلٍ مُحدَّد، وإنما يُؤتون بصبيانهم ليقوم النبي عليه الصلاة والسلام بتحنيكهم، وفي هذا من القدوة ما فيه بحيث يبقى هذا الأمر مستمرا إلى يوم القيامة على أنه من سنن النبي عليه الصلاة والسلام، وقد كان لطيفا عليه الصلاة والسلام بالأطفال وهم صغار وذلك نفهمه من هذا الطفل الذي بال على ثوب النبي عليه الصلاة والسلام ولم نجد من النبي تأفُّفا ولا تعنيفا له أو لأمه، ولو حصل ذلك لنقله لنا الصحابة لشدة حرصهم على نقل كل ما يتفوه به النبي، ولشدة قرب النبي من الأطفال أنه كان يضع

30 عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، كشف المشكل من حديث الصحيحين، المحقق: علي حسين البواب، الناشر: دار الوطن، ج2، ص 344.

31 ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، المحقق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الناشر: دار النوادر، دمشق – سوريا، الطبعة: الأولى، 1429 هـ - 2008 م، ج4، ص 57.

32 البخاري، صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء للصبيان بالبركة، ومسح رؤوسهم، رقم: 6355.

الطفل في حِجْره "بفتح الحاء المهملة وكسرها وسكون الجيم هو الثوب، والحِضْن"[33]، فهو لم يكن بعيدا عنه، وهذا يدلُّ على قُرب النبي من الصبيان.

وعلاقة النبي عليه الصلاة والسلام ليست مقتصرة على تحنيك الصبيان بل كان يُؤتى بالصبيان ممن بهم وَجَعٌ ليدعو لهم، ففي حديث السائب بن يزيد رضي الله عنه يقول :" ذَهَبَتْ بِي خَالَتِي إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ ابْنَ أُخْتِي وَجِعٌ «فَمَسَحَ رَأْسِي وَدَعَا لِي بِالْبَرَكَةِ، ثُمَّ تَوَضَّأَ، فَشَرِبْتُ مِنْ وَضُوئِهِ "[34]، والسائب رضي الله عنه كان صبيا فقد ولد في السنة الثانية من الهجرة، وشهد حجة الوداع، وخرج مع الصبيان إلى ثنية الوداع يتلقى النبي – صلى الله عليه وسلم – مقدِمَه من تبوك" [35].

وكذلك حديث محمود بن الربيع رضي الله عنه" «عَقَلْتُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَجَّةً مَجَّهَا فِي وَجْهِي وَأَنَا ابْنُ خَمْسِ سِنِينَ مِنْ دَلْوٍ» 36، و"الملّ في حكم المسح والدعاء بالبركة"37.

يؤتى بالصبيان، فيدعو لهم بالبركة ويمضغ تمرة بفمه، ثم ينقلها إلى فم الطفل، ليكون ريقه صلى الله عليه وسلم من أول الأشياء التي تدخل جوف الصبي، فتحل فيه بركته صلى الله عليه وسلم، وتسابقت الوالدات في الحصول على هذه البركة لأطفالهن، وها هي أم سليم، زوج أبي طلحة الأنصاري، أم أنس رضي الله عنه تلد غلاماً. فتقول لابنها أنس: احمل هذا الطفل، واذهب به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وخذ معك تمرات، ليمضغها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيلقيها في فمه، حتى يكون أول شيء يدخل جوف الصبي ريق رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففعل أنس، وفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، مضغ التمرات، وفتح فم الصبي، فوضعها في فمه، فأخذ الطفل يلعب بلسانه، لتدخل جوفه، ثم أدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم إصبعه في فم الصبي، وأخذ يديره في حلقه مع عجينة التمر، يحنكه بها، وهو يدعو له بالبركة.

وهذه أسماء بنت أبي بكر زوج الزبير بن العوام، تهاجر إلى المدينة مع أختها عائشة، ومع فاطمة بنت النبي

---

[33] أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، كشف اللثام شرح عمدة الأحكام، اعتنى به تحقيقا وضبطا وتخريجا: نور الدين طالب، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – الكويت، دار النوادر – سوريا، الطبعة: الأولى، 1428 هـ – 2007، ج1، ص 312.

[34] صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب استعمال فضل وضوء الناس، رقم: 190.

[35] ابن الملقن، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، ج4، ص 309.

[36] البخاري، صحيح البخاري، كتاب العلم، باب: متى يصح سماع الصغير؟ رقم :77.

[37] شمس الدين البِرْماوي، أبو عبد الله محمد بن عبد الدائم بن موسى النعيمي العسقلاني، اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح، تحقيق ودراسة: لجنة مختصة من المحققين بإشراف نور الدين طالب، الناشر: دار النوادر، سوريا، الطبعة: الأولى، 1433 هـ – 2012 م، ج15، ص 390.

صلى الله عليه وسلم، تهاجر وهي حامل في شهرها الأخير، فتلد في قباء، فتحمل ابنها إلى المدينة، وإلى بيت أبيها أبي بكر، وتبحث عائشة في البيت عن تمرة، فلا تجد تمرة في البيت إلا بعد جهد جهيد، فتأخذ الطفل والتمرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيمضغ التمرة، ويحنك بها الطفل، ويدعو له، ويباركه، ويسميه عبد الله.

وهذا أبو أسيد تلد زوجته، فيحمل الطفل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليباركه، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمنذر[38].

وثبت من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه قال :" كَانَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْخُذُنِي فَيُقْعِدُنِي عَلَى فَخِذِهِ، وَيُقْعِدُ الحَسَنَ عَلَى فَخِذِهِ الأُخْرَى، ثُمَّ يَضُمُّهُمَا، ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ ارْحَمْهُمَا فَإِنِّي أَرْحَمُهُمَا» وقد ترجم البخاري لذلك "باب وضع الصبي على الفخذ"[39].

رابعا. تنشئة الأطفال على تحمُّل المسؤولية:

هذه قيمة كبرى في الحقيقة في التربية وهي أنْ يُعلَّم الصبي ما يتعلمه الكبار حتى يخرج من طوق الطفولة من غير تحميله فوق الطاقة، وهذه نظرة تربوية مهمة جدا، وهي على خلاف مانراه اليوم حيث نرى شبابا بسن الثامنة عشر وربما بسنّ العشرين وعقولهم عقول الأطفال يعجزون عن حمل المسؤولية.

فقد كان صلى الله عليه وسلم ينشئ فيهم الرجولة، يعلمهم كيف يتربون على ما يتربى عليه الكبار، بحيث يتجاوز سنّ الطفولة وقد كان هذا هديا من هديه عليه الصلاة والسلام فعن أنس بن مالك ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ على غلمان فسلم عليهم[40]، ولأجل هذا كان الصبية يحضرون الصلوات العامّة تدريبا لهم وتنشئة ، فعن ابن عباس، قال: «خرجت مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم فطر أو أضحى فصلى، ثم خطب »[41].

خامسا. قيمة العدالة :

تُعدُّ قيمة العدالة من أبرز القيم التي ينبغي أن يتحلى بها الإنسان ، وقد وردت في ذلك المئات من النصوص في القرآن الكريم وفي السنة النبوية، ومن المعلوم أن العدل من أعظم الصفات الإلهية حضورا في القرآن الكريم

---

38 انظر: موسى شاهين لاشين، فتح المنعم شرح صحيح مسلم الناشر: دار الشروق الطبعة: الأولى (لدار الشروق)، 1423 هـ - 2002 م، ج8، ص 443، وانظر في قصة أسماء بنت ابي بكر وقصة ابي طلحة: صحيح البخاري ، كتاب العقيقة، باب تسمية المولود غداة يولد، لمن لم يعق عنه، وتحنيكه رقم 5469، 5470.

[39] البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب وضع الصبي على الفخذ، رقم: 6003.

40 مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم ، كتاب السلام، باب السلام على الصبيان، رقم: 5714، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت

[41] البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب خروج الصبيان إلى المصلى، رقم: 975.

وبأساليب شتى، ولعلّها لم تنل صفة من صفات الله مثل هذه الأهمية، ولذلك حِكَمٌ بارزة من أبرزها اطمئنان العبد بعدل الله وضرورة استقامة سلوكه وبناء مجتمعه وفق العدل، ومما يُلحظ في النصوص القرآنية التي تتحدث عن العدل شدة وضوحها وارتباطها بأمثلة واقعية بعيدا عن التنظير الكلامي الذي رأيناه والذي يكون في كثير من الأحيان أقرب إلى الترف الكلامي البعيد في كثير من أجزائه عن الواقعية.

النصوص في وصف الله بالعدل كثيرة، وحسبنا قوله تعالى مادحا ذاته وشاهدا عليها بالعدل {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18)}[آل عمران: 18] وهي شهادة ليست قاصرة على الله تعالى بل شهدت بذلك الملائكة وأولو العلم.

يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور:" ولك أن تجعل «شهد» بمعنى بيَّن وأقام الأدلة... أي شهد بوحدانيته وقيامه بالعدل...والقيام هنا بمعنى المواظبة ... وقد أقام الله القسط في تكوين العوالم على نظمها...وفيما شرع للبشر من الشرائع في الاعتقاد والعمل، لدفع ظلم بعضهم بعضا، وظلمهم أنفسهم، فهو القائم بالعدل سبحانه، وعدل الناس مقتبس من محاكاة عدله" [42].

ويُلحظ وجود كلمة" قائما" وإعرابها" حال"[43] ويعني ذلك الدوام والاستمرار وعدم التغير فقيامه ربنا سبحانه بالعدل ثابتٌ لايتغير.

ومن الآيات التي تثبت عدل الله تعالى هو نفي الظلم عنه سبحانه { ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (182) } [آل عمران:182]

سعى النبي عليه الصلاة والسلام إلى زرع هذه القيمة في نفوس الناس من خلال القدوة الصالحة وها هي أم النعمان بن بشير رضي الله عنه فيما يرويه ابنها قائلا "أعطاني أبي عطية، فقالت عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: إني أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطية، فأمرتني أن أشهدك يا رسول الله، قال: «أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟»، قال: لا، قال: «فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم»، قال: فرجع فرد عطيته" [44]

فهذه الأمة الصالحة رضي الله عنها كان قدوة لابنها وستبقى قدوة لكلِّ الأمهات في قضية العدل، والذي

---

[42] محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج3، ص 187.

[43] أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري، التبيان في إعراب القرآن تحقيق : علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ج 1، ص 247.

[44] البخاري، صحيح البخاري ، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليه، باب الإشهاد في الهبة رقم 2587

لا ينبغي أن يفوتنا هنا أنَّ هذا الولد هو ابن عمرة رضي الله عنها، وليس ابن ضُرَّتها، كما هو منصوص عليه في الحديث السابق، ومع هذا رفضت هذه الأمُّ هذه العطية حتى يكون رسول الله شهيدا على ذلك، وكأنها رضي الله عنها شعرت بعدم العدل في أنْ يُمنَح أحد أبنائها شيئا ويتميز به عن الآخرين الذين هم من أولاد ضُرَّتها.

وبذلك يكون أمام هذا الصبي قُدوتان لن ينساهما: أوَّلهما هو رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي فصل في القضية ولم يشهد عليه وعدم شهوده على العطية دلالة على عدم موافقتها للصواب.

والقدوة الثانية هي أمُّه عمرة رضي الله عنها التي أبت أن تقبل حتى يشهد رسول الله وبذلك تكون هذه الأم منارة لابنها في زراعة قِيَم العدل والمساواة.

وهذه القيمة من أبرز القيم التي تصنع الأُلفة والمحبة بين أفراد الأسرة وتُبْعد عنهم مواطن الخلاف والشجار وحبِّ الذات.

سادسا.قيمة القوة:

القوة أمر اهتمّت به الشريعة أيَّما اهتمام، وأيّا كانت هذه القوة :فكرية، عضلية ، عامّة ، خاصَّة... فالأمم لاتنهض من غير قوّة، وصدق الله العظيم القائل {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ } [الأنفال: 60] وقوله صلى الله عليه وسلم:" «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ» [45].

وقد اعتنى النبي عليه الصلاة والسلام بالقوة وجعل من نفسه ومن أصحابه نموذجا للاعتناء بهذه القيمة ومما قام به النبي أنَّه طلب من سمُرة بن جندب أن يتصارع مع رافع بن خديج وذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام أجاز في القتال رافع لمهارته في الرمي بالنبل ولم يُجز سمُرة، فقال سمرة: أنا أقوى من رافع، أنا أصرعه، فلما أُخبِر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك أمرهما أن يتصارعا أمامه، فتصارعا، فصرع سمرة رافعا، فأجازه أيضا [46].

هذا الصنيع من النبي فيه زرع لقيمة القوة، فكلُّ من كان حاضرا وكلُّ من سمع بهذا الحديث سيدفعه إلى أنْ يصنع مثله لو كان في موقفٍ مماثل .

سابعا.قِيَمتا الشعور بالمسؤولية والعِفَّة:

---

[45] مسلم، صحيح مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، رقم: 2664 .

[46] صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم الناشر: دار الهلال – بيروت، الطبعة: الأولى، ص 229.

هاتان القيمتان من أبرز القيم التي دعت إليها الشريعة، والنصوص في هذا كثيرة جدًّا، وحسْبنا أن نقول إنَّ خيرية الأمة مرتبطة بقيمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قال سبحانه وتعالى {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [آل عمران: 110] وهي داخلة ضمن قيمة المسؤولية ، فقد أسَّس القرآن لقضية المسؤولية بربطها بالأخلاق والعقل والحرية والتكريم وبَعثة الرسل، فمن قامت به هذه المعاني ثبتت مسؤوليته، ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنفقة والنصح والإرشاد وقول الحق، وأساس ذلك حمل الأمانة في قوله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} [الأحزاب: 72]

وأمَّا العفة فهي الطُهر والنقاء الذي كان سببا في مدح يوسف عليه السلام، وهو سبب لطهارة النفس وتزكيتها، ويبدأ من غض البصر كما قال سبحانه وتعالى {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ} [النور: 30، 31] ومن ثمراته الابتعاد عن الزنا وفاحشة اللواطة.

نجد بذور هاتين القيمتين في حديث النبي عليه الصلاة والسلام «مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ» [47]

والحكمة من التفريق بينهم في المضاجع هي أنَّ هذه السِّن هي مظنة البلوغ، والصبي في سِنّ المراهقة قد يخطر في باله أشياء، وهذه الخواطر وإنْ كانت قليلة لكنَّ الشرع أعطاها أهميّة خاصة لأنها متعلقة بالعفة والتي هي الأساس في بناء الأُسر النظيفة، يقول المناوي:" أي فرقوا بين أولادكم في مضاجعهم التي ينامون فيها إذا بلغوا عشرا حذرا من غوائل الشهوة وإن كُنَّ أخواته"[48].

[47] أبو داود، سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة، رقم: 495

[48] المناوي، فيض القدير عبد الرؤوف، المكتبة التجارية الكبرى – مصر، الطبعة: الأولى، 1356 هـ، ج5، ص 521.

الخاتمة والتوصيات

بعد أنْ منّ الله عليَّ بإتمام هذه الدراسة يمكن القول بأن السُّنة النبوية كانت مصدرا مهمّا لغرس القِيم انطلاقا من صناعة القُدوة، فالطفل الذي خلق الله قلبه على براءة يحتاج إلى من يتأسّى ويقتدي به، ولمّا كان النَّشء هم اللَّبِنة الأساسية لقيام المجتمع ونهوضه كان الاهتمام النبوي مُنصبًّا على زراعة القيم انطلاقا من القُدوة.

الطِّفل بحكم براءته لا يؤمن في نشأته إلا بما هو محسوس، وأقرب المحسوسات إليه هم الوالدان، ومِن هذا المنطلق جعل النبي عليه الصلاة والسلام الأبوين مسؤُوَلين عن تربيته أمام الله تعالى، فإذا فَشِل الأبوان في التربية صار الطفل كالأرض الخالية الصالحة لكل من يُريد أنْ يغرس فيها ماشاء.

وعندما نرجو إلى سيرة النبي عليه الصلاة والسلام في تعامله مع النشء نجد أنّه صبَّ اهتمامه نحوهم، فهم رجال المستقبل وبُناتُه وحماتُه، فقد كان يعاملهم عليه الصلاة والسلام وكأنَّهم رجالٌ يُسلِّم عليه ، يأخذهم للصلاة يمازحهم، يُصحّح لهم ... وهذا ليس انتقاصا من براءة الطفولة أو التقليل من شأنها، فالطفل يأخذ حقّه من اللعب ، ولكن لا يعني هذا أن يبقى الطفل طفلا حتى سنَّ الثامنة عشر كما تربط الكثير من القوانين سنّ المسؤولية بهذا العُمُر ، بحيث يبقى الشابُّ والفتاة يلعبان بالشوارع قُبيل هذه السِّن، فذلك يزرع في نفوس النشء اللامبالاة والتنصُّل من المسؤولية، ولا ننسى أنَّ الكثير من الفاتحين في تاريخ أمتنا كانوا شبابا، كأسامة بن زيد رضي الله عنه، ومحمد بن القاسم الثقفي .

ومن الملاحظ أنَّ القيم التي اعتنى بها النبي عليه الصلاة والسلام هي القيم التي لا تخلو منها أمة تريد النهوض كقيم العدالة والمساوة وحبَّ التعليم والتَّعلُّم والقوة والشعور بالمسؤولية والتواصل مع الآخرين ، وكلُّ هذه القيم متفرعة عن قيمة الإيمان بالله تعالى التي تجعل الإنسان عبدا لله وليس عبدا لشهوته.

مما نوصي به في خاتمة بحثنا أنْ يقع اهتمام بهذه القيم لدى الناشئة في المناهج المدرسية وفي تخصيص بعض الأماكن لممارسة هذه القيم تطبيقا .

والله من وراء القصد.

قطر/ الدَّوحة 20/ 10/ 2020

أ.د.حسن الخطاف

المصادر [49]

1 . ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، **كشف المشكل من حديث الصحيحين**، المحقق: علي حسين البواب، الناشر: دار الوطن .

2 . ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي، **التوضيح لشرح الجامع الصحيح**، المحقق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الناشر: دار النوادر، دمشق – سوريا، الطبعة: الأولى، 1429 هـ - 2008 م.

3 . ابن سيده، علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، **المحكم والمحيط الأعظم**،تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 2000 م.

4 . ابن عاشور، محمد الطاهر ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: 1984 هـ،

5 . ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني ، **مقاييس اللغة** ، عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، 1399هـ - 1979م.

6 . ابن منظور، محمد بن مكرم ابن منظور، **لسان العرب**،تح:عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله و هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة.

7 . أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، **كشف اللثام شرح عمدة الأحكام**، اعتنى به تحقيقا وضبطا وتخريجا: نور الدين طالب، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الكويت، دار النوادر – سوريا، الطبعة: الأولى، 1428 هـ - 2007 .

8 . أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني، **سنن أبي داود**، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.

9 . الأزهري، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، **تهذيب اللغة**، المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، 2001م، محمد حسن حسن جبل، **المعجم الاشتقاقي المؤصل**، الناشر: مكتبة الآداب – القاهرة، الطبعة: الأولى، 2010 م.

10 . الآمدي، سيف الدين الآمدي، **الإحكام في أصول الأحكام**، تح: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت/ دمشق.

11 . البخاري، محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري** ،تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، 1422هـ .

12 . البِرْماوي، محمد بن عبد الدائم بن موسى النعيمي العسقلاني ، **اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح** ، تحقيق ودراسة: لجنة مختصة من المحققين بإشراف نور الدين طالب، الناشر: دار النوادر، سوريا، الطبعة: الأولى، 1433 هـ - 2012 م.

13. الجصاص ، أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي، **الفصول في الأصول**،وزارة الأوقاف الكويتية، الطبعة: الثانية، 1414هـ - 1994م.

14 . الطبري، محمد بن جرير، **جامع البيان في تأويل القرآن**، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 2000 م.

15 . عبد الغني عبد الخالق، **حجية السنة**،دار السعداوي للطباعة والنشر والتوزيع.

[49] ملاحظة: كلً معلومة ناقصة من الدار الطابعة، او المحقق أو سنة النشر..فهي ناقصة من الأصل

16. العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله ، **التبيان في إعراب القرآن**، تحقيق : علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي وشركاه.

17. القرطبي، محمد بن أحمد، **تفسير القرطبي**، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، 1384هـ - 1964 م.

18. القونوي، قاسم بن عبد الله بن أمير علي، **أنيس الفقهاء في تعريفات الألفاظ المتداولة بين الفقهاء**، الناشر: دار الوفاء – جدة، الطبعة الأولى، 1406، تحقيق: د. أحمد بن عبد الرزاق الكبيسي.

19. لاشين، موسى شاهين ، **فتح المنعم شرح صحيح مسلم**، الناشر: دار الشروق الطبعة: الأولى (لدار الشروق)، 1423 هـ - 2002 م.

20. المازري، محمد بن علي بن عمر التَّمِيمي ، **المُعْلم بفوائد مسلم** ، المحقق: الشيخ محمد الشاذلي النيفر، الناشر: الدار التونسية للنشر، المؤسّسة الوطنية للكتاب بالجزائر، المؤسّسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدّراسات بيت الحكمة، الطبعة: الثانية، 1988 م.

21. المباركفوري، صفي الرحمن ، **الرحيق المختوم**، الناشر: دار الهلال – بيروت، الطبعة: الأولى.

22. مسلم بن الحجاج، **صحيح مسلم** ، كتاب السلام، باب السلام على الصبيان، رقم: 5714، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت

23. المناوي، **فيض القدير عبد الرؤوف**، الناشر: المكتبة التجارية الكبرى – مصر، الطبعة: الأولى، 1356 هـ، ج5، ص 521.